

## السكك الحديدية السريّة\*



ماريون بويهم  
«مخك»  
(2016)

رواية  
كولسون  
واينهد  
تقديم  
احمد  
العلي  
ترجمة  
سماح  
جعفر

كورا، عبدة تعمل في مزرعة قطن خلال الفترة التي سبقت نشوب الحرب الأهلية الأميركية في القرن الثامن عشر. يعيش العبيد وقتها حياةً جحيمة، غير أن كورا وجدت في حياتها ما هو أشد صعوبة؛ فهي لم تكن منبوذة فحسب من قبل البيض، بل أيضاً من قبل إخوانها الأفريقيين، لأن والدتها هربت من المزرعة من دون أن يتمكن صيادو العبيد من إعادتها، وهذا حلم كل عبيد دون استثناء. ينضم إلى المزرعة سيزر، العبد الذي اصطادوه في فرجينيا، فيعجب بكورا ويخبرها عن أمر السكك الحديدية السريّة: مهابر تحت الأرض لا يُعرف من حفراها ومن سعى إلى جلب القاطرات البدائية إليها، ولا يعرف البيض الأعداء طريقاً إليها وأين تقع، فالداخل إليها مخبأ ومموّه. غير أن سيزر، الذي يعرض على كورا الهرب نحو الشمال، حيث يعيش السود أحراراً، يعرف شخصاً يبدله على أحد الداخل، فتأخذ حياة كورا درياً لم تتخيلها.

يُعالج الروائي الأميركي كولسون وإيهيد (1969) في هذه الرواية التي صدرت عام 2016، مسألة العبودية والظلم الأسود - الأسود، والخدمة الأميركية بشأن المساواة بين المواطنين منذ إعلان الاستقلال الأميركي. ورغم كتابته السردية المتشظية التي تشبه اللقطات المتتابعة التي يضطر معها القارئ إلى إعادة القراءة دوماً، لا الركض مع السرد حتى النهاية، فإن أسلوبه هذا يترك التأثير المرجو منه في نفس القارئ وخياله: الحياة ليست نهراً

جارياً سلساً، بل هي مليئة بالسخام والتراب والمستنقعات، وخطوات الهرب إما إلى المشنقة، أو الشمس.

## الفصل الأول

في المرة الأولى التي اقترح فيها سيزر على كورا الهرب نحو الشمال، أجابت بالنفي. كان هذا حديث جدتها: «أجاري». لم تشاهد جدّة كورا المحيط مطلقاً قبل تلك الظهيرة المشرقة في ميناء عويده، حيث كان الماء يلتمع وقتها في زنزانة الحصن. كانوا يوضعون داخل الزنزانة حتى تصل السفن. اختطف مهاجمو داهوميان الرجال أولاً، ثم عادوا إلى قرينتها في الليلة التالية لأجل النساء والأطفال، اصطحبوهم نحو البحر مكبلين بسلاسل تصل كل اثنين معاً. اعتقدت أجاري، بينما تحرق في الداخل الأسود، أنها سوف تجتمع مع والدها، هناك في الظلام. أخبرها الناجون من قرينتها أنه عندما فشل والدها في الحفاظ على وتيرة المسيرة الطويلة، أوقد المهاجمون النار في رأسه وتركوا جسده على الطريق. أما والدتها فقد ماتت قبل سنوات.

بيعت جدّة كورا عدة مرات خلال الرحلة إلى الحصن، وتم تبادلها بين تجار الرقيق لتعمل في نظم السودع والخرز. كان من الصعب معرفة سعرها في عويده لأنها كانت ضمن عملية شراء بالجملة، ثمانية وثمانون نفساً بشرية مقابل ستين صندوقاً من خمرة الرّم

وقفتها المتكلفة ومظهرها البائس من بين آلاف العبيد. كانت مقيدة من رأسها إلى أخصص قدميها، من رأسها إلى أخصص قدميها في بؤس مأساوي. على الرغم من محاولتهم البقاء معاً في أثناء المزاد العلني في عويده، فقد اشترى تجار برتغاليون باقي أفراد عائلتها فأخذوهم من البارجة «فيفيليا»، البارجة التي بعد رحيلهم بأربعة أشهر كانت تنجرف على بُعد عشرة أميال قبالة برمودا. فقد انتشر الطاعون على مننها، وقزرت السلطات إشعال النار فيها ومشاهدتها تنصدع وتغرق. لم تعرف جدّة كورا شيئاً عن مصير البارجة. راحت طوال حياتها تتخيل أبناء عمومته يعملون مع سادة أسخياء في الشمال، وتعتقد صفقات حولهم بشروط أكثر تسامحاً من الصفقات التي تتضمنها هي. ربما ينسجون، أو يغزلون، ولا يقومون بأعمال الحقول. في قصصها، تمكن إيساي وسيدو والبقية بطريقة أو بأخرى من شراء صكوك عتقهم من العبودية، فعاشوا رجالاً ونساءً أحراراً في مدينة بنسلفانيا، وهو المكان الذي سمعت اثنين من الرجال البيض يتكلمون عنه ذات مرة. تلك الأوهام منحت أجاري الراحة عندما كانت أعباؤها تحطمها إلى ألف قطعة.

المرة التالية التي تُباع فيها جدّة كورا، كانت بعد قضائها شهراً في مستشفى الأمراض الوبائية في جزيرة سوليفان. ما إن صدق الأطباء على أن جدّة كورا وبقية حمولة سفينة ناني خالية من الأمراض، حتى شهدوا يوماً حافلاً في السوق، مزاداً كبيراً يجلب دائماً حشداً متنوعاً من الشراة.

توافد التجار والقوادون من كل مكان على الساحل في تشارلستون، للتحقق من عيون البضائع ومفاصلها وأعمدتها الفقرية، حذرين من الاضطرابات التناسلية والالام الأخرى. كان المشاهدون يمشغون المحار الطازج والذرة الساخنة بينما يطلق بائعو المزاد أصواتهم في الهواء. وقف العبيد عراة على المنصة. كانت هناك حرب مزايادات بين مجموعة من عشاق الأشانتي: أولئك الأفارقة من أصحاب السلالة الجيدة والعضلات المقلوبة، قام مدير محاجر الحجر الجيري بشراء حفنة من الأطفال الزنوج في صفقة مذهلة. رأت جدّة كورا صبياً صغيراً من العبيد يأكل الحلوى وتساءلت عما يضعه في فمه.

قبل غروب الشمس، اشتراها وكيل بمبلغ مئتين وستة وعشرين دولاراً. كان بإمكانها أن تجلب سعراً أكبر، لكن ذلك الموسم شهد وفرة في الفتيات الصغيرات. كانت بذلة الوكيل مصنوعة من أكثر الأقمشة التي رأتها بياضاً. بينما تومض على أصابعه خواتم ذات أحجار ملونة. وعندما قرص ثدييها لمعرفة ما إذا وصلت سن البلوغ، شعرت بمعدن الخواتم بارداً على بشرتها. تمّ وسّمها، ليست أول مرّة ولن تكون الأخيرة، وتكبيها خلال ما تبقى من يوم المزاد. في تلك الليلة، بدأ العبيد مسيرتهم الطويلة نحو الجنوب، مكبلين خلف عربات التجار التي تجرّها الدواب. أما السفينة التي ناني، فكانت حينئذ في طريقها إلى ليفربول، مُحفلة بالسكر والتبغ. وكان هناك عدد أقل من الصرختات في جوفها.

ربما تظن أن جدّة كورا ملعونة، بسبب بيعها واستبدالها وإعادة بيعها عدة مرات على مدى السنوات القليلة التالية. دائماً كانت الكوارث المذهلة تحل على ملاكها. سيدها

صفحات الإبداع من تنسيق:  
احلام الطاهر

الأول خُدع بواسطة رجل باعه جهازاً لتنظيف القطن أسرع مرتين من مخلج القطن. كانت الرسوم البيانية مقنعة، لكن في النهاية كانت أجاري مُلكيةً أخرى تمت تصفيتها بأمر من القاضي. بيعت بمائتين وثمانية عشر دولاراً في تبادل سريع، وجاء سبب الانخفاض في السعر بسبب تقلبات السوق المحلي. مالبك آخر مات بدء الاستسقاء، ثم قامت أرملته ببيع العقارات لجمع المال من أجل عودتها إلى موطنها في أوروبا. قضت أجاري ثلاثة أشهر مفلوكة لرجل ويلزي فقدّها في نهاية المطاف هي وثلاثة عبيد آخرين واثنين من الخنازير جزاء خسارته في جولة لعب بأوراق اللعب. وهلم جرا.

كان سعرها متذبذباً. لكن عندما تُباع مزارع عده مثلها، فإن العالم يعلم أن تولى اهتماماً أكثر وأكثر للتفاصيل. لذا تعلّمت أن تتكيف بسرعة مع المزارع الجديدة التي تؤخذ إليها للعمل، وأن تُتميز مُحطمي الزنوج من الملاك عن الرّحيمين بهم، والكسالى عن المجتهدين، والمخبرين عن حافظي الأسرار. السادة والعشيقات بدرجات مكرم، والأراضي المملوكة بإثنية المستقبل عن الواعدة بالخير. أحياناً لا يريد المزارعون أكثر من حياة متواضعة، لكن هناك رجال ونساءً يرغبون في امتلاك العالم، كما لو كان العالم مجرد مساحات للزراعة يُمكن امتلاكها شيئاً فشيئاً. مائتان وثمانية وأربعون ومائتان وستون ومائتان وسبعون دولاراً. أينما ذهبت وجدتهم يزرعون قصب السكر والبقوليات فتعمل معهم، باستثناء آخر أسبوع قبل بُعِثها مرة أخرى، حين قضت الوقت في لف التبغ.

أعلن التاجر في مزارع التبغ أنه يبحث عن عبيد في سن التكاثر، ويفضل أن تكون أسنانهم مكتملة وأن يكونوا ليثني العربية. كانت قد أصبحت امرأة وقتئذ. لذلك ذهبت.

كانت تعرف أن العلماء البيض يحدقون في الأشياء لفهم كيفية عملها. حركة النجوم عبر الليل، امتزاج الأخطا الأربعة في الدم. درجة الحرارة المطلوبة لإنتاج محصول لخصدها الأسود وراكت الملاحظات. كل شيء له قيمة، وإذا تغيرت القيمة يتغير كل شيء. اليقطينة السلمية تساوي أكثر من تلك المتشققة التي لا تحتفظ بالمياه داخلها، والسنارة التي تُبقي سمكة القرموط عالقة بها أكثر قيمة من تلك التي ينفك عنها الطعم. المفارقة الساخرة في أميركا هي أن البشر أيضاً أشياء لها قيمة معينة. من الأفضل مثلاً أن تقلل خسائرك بالألأ بتعاط رجل مسناً ل يبقى على قيد الحياة خلال الرحلة عبر المحيط، بل بتعاط شيئاً من سلالة قبليّة قويّة يجلب زبائنه أولاً بأول. الفتاة المُستعبدة الولودة التي تعضّر من نفسها جزاء صغيرة كانت مثل نبتة النعناع، إنَّها مال يجلب مالاً أيضاً. إذا كنت شيئاً -عربة أو حصاناً أو عبداً- فقيمتك تحدّد إمكانيتك. وبالتالي فكزت في مكانها.

وصلت أخيراً إلى جورجيا. اشتراها وكيل مزارع عائلة آل راندال، مقابل مائتين واثنين وتسعين دولاراً رغم الفراغ الجديد الذي شاع في نظرة عينيه، وجعلها تبدو بسيطة التفكير. ولبقية حياتها، لم تذهب أجاري بعيداً عن مزارع راندال ولم تتنفس نفساً واحداً خارجها. كانت في المنزل، على تلك الجزيرة النائية التي تُطل على الفراغ.

تزوَّجت جدّة كورا ثلاث مرات. كانت تحمّل مئلاً لاكتاف العريضة